

العدد 13، مارس 2022

مجلّة شهرية تصدر عن جمعية تونس الفتاة



موسكو أم واشنطن؟ إلى أين تتجه بوصلة الدول العربية؟ ص. 4-5 أنيس عكروتي

ص. 6-9

في الشعب والديمقراطيّة

ص. 10-11

كيف أزاحت تونس القيروان؟ مقال لدومنيك فالريان

ترجمة: فهمي رمضاني

إبراهيم خليفي

حمزة عمر

ص. 12-13

الثقافة الوطنية بين الرثاثة والريع

لوحة وعشر قصص ص. 14-17

كلثوم عياشية ورجاء عمار

التصميم

رئيس التحرير

حروف حرّة

حمزة عمر

حمزة عمر

مجلّة شهرية تصدر عن جمعية تونس الفتاة

thefrontierpost.com

مصدر صورة الغلاف

أنيس عكروتي فهمي رمضاني

فريق التحرير

تأسست في مارس 2021

للتواصل معنا

redaction@tounesaf.org



المخطّط الاستراتيجي الثالث لجمعيّة تونس الفتاة (2021-2023) متوفّر للاطّلاع والتحميل على الرابط:

2123.tounesaf.org

موسكو أم واشنطن؟ إلى أين تتجه بوصلة الدول العربية؟



بقلم**: أنيس عكروتي** عضو مؤسس لجمعية تونس الفتاة مهندس بيولوجي باحث في شؤون الجماعات الجهادية

anis@tounesaf.org

غير بعيد عن أبوظبي، اتخذت الرياض موقفا مشابها حين رفضت إدانة الغزو الروسي واكتفت باستنكار

العنف

رغم بعد المسافة الجغرافية التي تفصل بين الدول العربية وساحة النزاع الروسى الأوكراني فإننا لسنا معزولين عمّا يحدث في كييف.

تزامنا مع أولى الغارات الجوية الروسية على الأراضي الأوكرانية، تتالت ردود الأفعال العالمية تفاعلا مع هذا الحدث غير المسبوق والذي ستكون له تداعيات كثيرة منها الاقتصادى والسياسى والأمنى لا محليا فحسب، بل عالميا.

عربيا، يعتبر الموقف الإماراتي أكثر وضوحا خاصة عندما امتنع ممثلها في مجلس الأمن عن التصويت (إلى جانب الهند والصين) لإدانة العمليات العسكرية الروسية في أوكرانيا.

موقف ولئن شكّل صدمة في دوائر القرار الغربية فإنه غير مستغرب نظرا للروابط الاقتصادية وخاصة الأمنية المتينة بين أبوظبى (ودول الخليج عموما) وموسكو. فالإمارات التي تعوّل كثيرا على الدبلوماسية الاقتصادية لكسب مزيد من الأصدقاء وحتى الجمع بين الثنائيات المتنافرة (إسرائيل وإيران كأبرز مثال)، غير مستعدة للقفز في أحد المركبين، إما الصين - روسيا أو الولايات المتحدة الأمريكية.

رغم حثّ وزير الخارجية الأمريكي نظيره الإماراتي على اتخاذ موقف مدين للعمليات العسكرية الروسية في أوكرانيا فإن أبوظبي تجاهلت هذه النداءات وتواصلت مع الجانب باتفاق " أوبك بلس" كما جاء في الروسى معبرة عن اعتزازها بعمق الروابط الودية والاستراتيجية بين البلدين وذلك في اتصال إماراتي مع سيرغى الفروف وزير الخارجية فيفرى اللإشارة، فإن منسق مجلس

الروسي عشية بدء العمليات.

تريد الإمارات، حسب عدة محللين، الحفاظ على استقرار الأسواق الطاقية إلى جانب أنّها تعوّل كثيرا على دعم موسكو داخل مجلس الأمن فيما يتعلّق بفرض عقوبات عسكرية ومالية على حركة أنصار الله اليمنية المعروفة بالحوثيين.

غير بعيد عن أبوظبي، اتخذت الرياض موقفا مشابها حين رفضت إدانة الغزو الروسى واكتفت باستنكار العنف والدعوة إلى تفعيل الجهود الدبلوماسية وإيجاد حلّ سلمى بين أطراف النزاع.

عززت المملكة العربية السعودية، والتي كانت تعتبر من أبرز الحلفاء التقليديين لأمريكا في المنطقة، منذ مدّة من تعاونها العسكري مع موسكو .في سبتمبر من العام الماضي وقعت المملكة اتفاقية مع روسيا لتطوير مجالات التعاون العسكري المشترك بين البلدين، تعاون يزعج واشنطن فالسعودية اليوم تغيرت أولوياتها واحتياجاتها، لذلك فهي في حاجة إلى مزيد من الانفتاح على محور الصين-روسيا بالخصوص (وكانت واشنطن قد أبدت مخاوفها من برنامج صيني لتطوير الصواريخ الباليستية السعودية أواخر العام الماضي).

كلّ من السعودية والإمارات حريصتان على استقرار وتوازن أسواق البترول والتزام المملكة الاتصال الهاتفي بين ولى العهد السعودي محمد بن سلمان والرئيس الفرنسي ايمانويل ماكرون آخر شهر

الأمن القومى الأمريكي للشرق الأوسط بريت ماكغورك ومبعوث وزارة الخارجية لشؤون الطاقة آموس هوكشتاين قدما في زيارة رسمية للمملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة للضغط على مسؤولى البلدين الخليجيين لرفع إنتاج النفط الخام (منتصف شهر فيفري الماضى) لكن الطلب جوبه بالرفض وعبرت كلّ من الرياض وأبو ظبى عن التزامهما باتفاق أوبك بلس الذي يجمعهما مع موسكو.

تبع موقف قطر، كدولة طاقية، الحسابات الجيوسياسية نفسها، حيث لم تعبر صراحة عن إدانتها للتدخل العسكرى الروسى بل اكتفت بالدعوة إلى الحوار وتهدئة الأوضاع.

عزّزت قطر، رغم علاقاتها القوية مع الولايات المتحدة الأمريكية خاصة في الملف الأفغاني مؤخرا، العلاقات الثنائية التى تجمعها بموسكو خلال السنوات القليلة الماضية، يكفى أن نذكر أن التبادل التجاري بين البلدين ارتفع بنسبة 47 % سنة 2020.

على مستوى الملف السوري، يبدو أنّ تبعات التركيز العسكرى الروسي على النزاع مع كييف ستكون سلبية على الجانب الأمني في دمشق لا ننسى أن انخراط الروس في الحرب الدائرة بسوريا ساهم بشكل كبير في انحسار الوجود العسكرى لفصائل المعارضة والحركات الجهادية، فمنذ 2015 بدأ النظام السوري في التقاط أنفاسه بعد طول انهاك.

مع بدء الهجوم العسكري الروسي على أوكرانيا، لوّحت موسكو بخفض التنسيق مع عدّة دول منافسة داخل سوريا، وبالتنسيق مع أنقرة لضمان تهدئة طويلة



المدى على مستوى إدلب إضافة إلى التنسيق مع سلاح الجو الإسرائيلي قبل تنفيذ غارات تستهدف الوجود الإيراني في سوريا.

من المؤكد أن تخفيض الوجود العسكري الروسي، إن حدث، سيثير مطامع عدة مجموعات مسلحة في فتح جبهات قتالية جديدة وسيخدم طبعا الحضور الإيراني داخل سوريا، ممّا سيخلق توترات أمنية في الشرق الأوسط عموما.

غير بعيد عن دمشق، تتعرّض القاهرة لضغوطات أمريكية كبيرة قصد إدانة الغزو الروسي بشكل صريح والمشاركة في الجهود الغربية لتقويض الاقتصاد الروسي .وقد سبق لواشنطن أن حذّرت المصريين من فرض عقوبات قاسية إن مضوا قدما في التزود بأنظمة دفاع جوي من موسكو .مصر وخلافا للدول الخليجية المصدّرة للطاقة، تواجه تحديًا آخر ألا هو المتعلق بالأمن الغذائي. إذ أنها وهي التي تعانى الجفاف، الذي زاد سد النهضة الأثيوبي في تأزيمه، تستورد قرابة 90 % من الحبوب من روسيا. ورغم أنّ المخزون الحالى يكفى لمدّة أشهر إلا أنّ إطالة مدّة الحرب وخاصّة العقوبات الاقتصادية الغربية على روسيا، وأبرزها منع موسكو من استغلال نظام

سويفت المالي وبالتالي تعطّل منظومة المدفوعات هذا إلى جانب غلق تركيا مضيق الدردنيل أمام السفن الروسية. كلّ ذلك سيؤثر بشكل كبير على أسعار المواد الغذائية وحتّى على استحالة التزوّد بها بأي ثمن، ومن المرجّح أن ترتفع أسعار الحبوب في العالم بنسبة تصل إلى 100%، فحسب أخر الأرقام بلغ سعر القمح العادي قارنة بالشهر الماضي؟

وضع تونس وبقية دول شمال أفريقيا وحتى لبنان (التي أعلنت أنَّ مخزونها من الحبوب يكفي لمدة شهر وحيد) لا يختلف كثيرا عن الوضع المصري فأيّ اضطراب في حصّتي روسيا وأوكرانيا من صادرات الحبوب ستكون له عواقب وخيمة على الأمن الغذائي في هذه البلدان وسيؤدي حتما إلى تدهور الأوضاع الاجتماعية المتردية بطبعها.

تنويع الواردات والعمل على تقليصها ضروري لتفادي مثل هذه الأزمات، بذلك يحكن للدول أن تؤمن احتياجاتها حتى أثناء حدوث نزاعات. هذا الخوف من تأثر نسق استيراد المغذائية جعل هذه الدول تمتنع عن الإدلاء بأي مواقف من الحرب الموارية على الأراضي الأوكرانية.

ختاما، تبدو واشنطن مغيّبة بصفة كبيرة في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا لصالح الامتداد الصيني-الروسي فأمريكا التي غيّرت من أولوياتها وانسحبت من أفغانستان والعراق وسوريا تاركة الباب مفتوحا على مصراعيه أمام خصميها الرئيسيين، أدركت بشكل متأخّر أنها ارتكبت أخطاء فادحة في تقدير المواقف وتريد أن تستغل هذه الأزمة الروسية الأوكرانية لكسب ودّ حلفاء قدماء-جدد.

أمريكا التي تعتبر نفسها القوّة السياسية الأولى في العالم، لا تقبل أن تخسر مزيد من الحلفاء ولمصلحة من؟ لمصلحة التنين الصيني أكبر منافس اقتصادي والدب المتوقع أن تلعب واشنطن ورقة العقوبات الاقتصادية ضد الدول التي ستعزز أكثر من تعاملها العسكري خاصة مع بكين وموسكو.

وضع تونس وبقية
دول شمال أفريقيا
وحتى لبنان (التي
أعلنت أنّ مخزونها من
الحبوب يكفي لمدّة
شهر وحيد) لا يختلف
كثيرا عن الوضع

ترجمة: **فهمى رمضاني**

عضو الهيئة المديرة لجمعية تونس الفتاة

يكشف اختيار

موقع تونس عن

أهمية هذه

المتطلبات الدفاعية:

بحيرة تفصل المدينة

وتحميها من البحر

وتتواصل معها

بواسطة قناة حفرها

حسان بن النعمان

أستاذ مبرز في التاريخ

fahmi@tounesaf.org

كيف أزاحت تونس القيروان؟ $^{f 1}$ مقال لدومنيك فالريان

والسماح بالانسحاب إذا لـزم الأمـر.

يعود ذلك إلى سبب دفاعي في المقام

الأول، إذ لا يزال البيزنطيون يهيمنون

على البحر ويهددون السواحل على

الرغم من تكوّن أسطول إسلامي.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الثقل السياسي

لم يعد متمحورا حول القسطنطينية

في الجانب الآخر من البحر، بل في

دمشق ثم بغداد وهما مدینتان مکن

الأسباب الأخرى اقتصادية بالأساس،

الوصول إليهما عن طريق البر.



القيروان بعيدا جدا عن البحر؟

قاد العرب غاراتهم الأولى باتجاه بلاد طويلا وصعبا نظرا لبعدهم عن قاعدتهم العسكرية في مصر، لذلك على الانسحاب. وقد أعادت الـدولـة خلافتها في دمشق، إطلاق عمليات فقد عين الخليفة معاوية عقبة بن نافع قائدا للجيش والذي قرر سنة لم يكن بسبب الصدفة، إذ تتموقع المدينة بشكل استراتيجي على طريق مرتبط بالشرق لجلب المساعدة

الإسلامي، دُمّرت قرطاج آخر معقل المقاومة البيزنطية للغزو العربي للمرة الثالثة سنة 698 م، ولن تنهض من جدید حتی ولو کانت آثارها مصدر إعجاب الجغرافيين العرب طيلة العُصور الوسطى. أما القيروان الـتـي ستصبح إحدى أهم مراكز الثقافة الإسلامية، فلم تكن آنـذاك سـوى معسكرا للجيوش. وإلى حدود الـقـرن الحادي عشر ميلادي، كانت تونس منذ 670 م، استقر أسياد البلاد الجدد الذين أخذوا اسم إفريقية (الموروث من إفريقيا الجديدة) في القيروان، تلك المدينة التي تأسست في الجنوب والتي ستقود مصير البلاد لأكثر من أربعمائة عام.

بعيدا عن البحر الأبيض المتوسط

وفكرية حيث تم توسيع المسجد الذي أسسه عقبة وإعادة بنائه مرات عديدة خلال القرنين الثامن والتاسع، بينما تطورت الأسواق والفنادق (مؤسسات لاستقبال التجار) ويقدر المؤرخ محمد الطالبي أنه في القرن التاسع كان عدد سكان المدينة في حدود مئات الآلاف. أصبحت الـقـيروان المركز الرئيسي لأسلمة المنطقة وتمحور ذلك حول شخصية العالم العظيم سحنون (توفي سنة 854م) مؤلف المدونة وهي مرجع في الفقه المالكي كانت لها قيمة علمية هامة

تونس الجديدة

في جميع أنحاء بلاد المغرب.

كانت تونس مجرد مدينة ثانوية على بعد 150 كلم من القيروان. في سنة 699 م قـرر الحاكم الأموى حسان بن النعمان فور تدمير قرطاج إنشاء مدينة تونس في موقع مُعمّر منذ العهد البوني على الأقل. وتتمثل مُهمتها الرئيسية في السيطرة على شمال البلاد والتصدي للهجمات البحرية و بالتالى فهى مدينة مخصصة لإيواء حامية وأسطول على الحدود البحرية المواجهة لصقلية البيزنطية.

يكشف اختيار موقع تونس عن أهمية هذه المتطلبات الدفاعية: بحيرة تفصل المدينة وتحميها من البحر وتتواصل معها بواسطة قناة حفرها حسان بن النعمان الذي أسس أيضا دارا لصناعة السفن بفضل 1000 قبطي تم جلبهم من مصر.. وقد أصبحت تونس مع سوسة الميناء الخارجي للقيروان وإحدى نقاط انطلاق الغارات على المسيحيين. وبالتالي فإن المدينتين تكملان بعضهما البعض على المستوى العسكري ولكن أيضا سياسيا واقتصاديا: تونس قريبة من سهول الحبوب الكبرى في الشمال والقيروان في قلب المناطق الأكثر جفافا التي تهيمن عليها زراعة أشجار الزيتون والماشية ومفتوحة إلى الشرق بالطرق البرية والبحرية.

تتطور تونس تدریجیا، إذ یستحضر الجغرافي اليعقوبي الذي يزور المنطقة بين عامي 876 و 889 مدينـة كبـيرة مـزودة بسور من الطوب والطين باستثناء جهة البحر حيث تم بناء السور من الحجر كما يصفها بأنها مضطربة ومتمردة.

ولقد كانت مهد عدة ثورات انطلقت من الجيش والتي وضعتها في مواجهة مع القيروان مند منتصف القرن الثامن وخاصة في القرن التاسع عندما حكم الأغالبة (800-800) إفريقية باسم الخلفاء العباسيون في بغداد. وبحسب الجغرافي

الجديدة ثاني مدينة في المنطقة فقط.

يعود قرار التخلي عن قرطاج وتأسيس عاصمة جديدة جزئيا إلى الرغبة في إحداث قطيعة مع الهيمنة البيزنطية المسيحية. لكن لماذا تمّ اختيار موضع

المغرب سنة 647 م، لكن التقدم كان كان عليهم أن يواجهوا مقاومة الجيوش البيزنطية والبربر في معاقلهم الجبلية، الأمر الذي جعل الجيوش العربية تتكبد عدة هزائم أجبرتها الأموية فيما بعد جمجرد تأسيس الانتشار الإسلامي على نطاق واسع. 670 م أن يؤسس معسكرا لإيواء الجيش ومن هنا جاءت تسمية القيروان باعتبارها "معسكرا-حامية". لا ريب أن قصة تأسيس القيروان محاطة بالأساطير، إذ يُخيف عقبة الحيوانات البرية ليُـؤسس عاصمة ويتلقى في نفس الوقت حلما يُخبره بالاتجاه الذي يجب أن يكون للمسجد. لكن اختيار موقع القيروان

كما يُمكن للمدينة أيضا أن تكون مثابة قاعدة لاستكمال السيطرة على بلاد المغرب وهو ما تُثبته النصوص مع هزيمة الكاهنة، ملكة الأوراس، التي رفعت في وقت مبكر لواء المقاومة ضد الحكام العرب سنة 690 م لكنها انهزمت في النهاية حوالي سنة يتوافق اختيار موقع القيروان أيضا مع سياسة واضحة للقادة المسلمين الذين اختاروا الاستقرار أو العثور على مدن بعيدة عن البحر الأبيض المتوسط كما هو الحال مع دمشق أو القاهرة.

فقد شهد البحر الأبيض المتوسط تراجعا حادا في نشاطه حتى قبل الانتشار العربي وفقد جاذبيته مؤقتا. وتقع جميع عواصم الإسلام الجديدة في الداخل على مفترق طرق التجارة الرئيسية وغالبا ما تكون على اتصال ببيئتين طبيعتين. في هذا الإطار، تستجيب القيروان لهذا النموذج، فهى تقع عند تقاطع طرق الشرق و الغرب التي تؤدي من الشرق إلى بلاد المغرب ثم إلى الأندلس (إسبانيا المسلمة) عبر مضيق جبل طارق والمحور الشمالي الجنوبي الذي يسيطر على شرق إفريقية وهي أيضا عند تقاطع الفضاءات المتوسطية والتليّة مما يجعلها مُهيئة للزراعة الشاسعة ولتربية الماشية ومنفتحة في نفس الوقت على الصحراء في الجنوب. في 705 م أصبحت القيروان عاصمة إفريقية. وقد غطت المقاطعة الجديدة من الناحية النظرية جميع منطقة بلاد المغرب لكنها أختزلت منذ منتصف القرن الثامن في إقليم طرابلس وتونس وشرق الجزائر، بينما

باعتبارها مقر الوالي، شهدت القيروان تطورات سياسية واقتصادية ودينية

كانت تقع غربا القوى المنشقة عن

الخلافة العباسية في بغداد.

الأندلسي البكري (القرن الحادي عشر_)، تهيزت تونس على الدوام بتواتر ثوراتها ضد حكام أفريقية و استعدادها لمقاومة أوامر حكامها فقد انتفضت أكثر من عشرين مرة. وفي كل مرة، يتمّ قمع المعارضة بشدة، مثلما حدث سنة 894 م عندما استولى الأمير إبراهيم الثاني على المدينة بالسلاح ، وأباحها للنهب والدمار، وأخذ 1200 سجين من بين الأعيان. لقد كان هناك موكب كامل من الجثث يصل إلى القيروان. وتحت حكم الفاطميين مرة أخرى، الذين أسسوا خلافة شيعية في القيروان (909) ، قبل نقل مـركـز حكمهم إلى مصر (971)، كانت تونس واحدة من مراكز معارضة الخلفاء ، لا سيما من خلال خطاب وتحرك الفقيه والمخلص محرز بن خلف (ت 1022) الذي أصبح فيما بعد شفيع المدينة ، تحت اسم سيدى محرز. ولا يزال ضريحه ، بالقرب من باب سويقة ، يجتذب المؤمنين إلى غاية اليوم. لكن في ظل حكم الأغالبة ، شهدت تونس مُوًا كبيرًا. فقد أعيد بناء جامع الزيتونة (من شجرة الزيتون) في سنة 864م ليحـل محل الجامع الذي تم تشييده في بداية القرن الثامن. يحتوي على 15 بلاطة من 6 خلجان و 184 عمودًا تعلوها تيجان تم جلبها من أنقاض قرطاج. تبدأ فيما بعد في الظهور بيئة علمية تضم الفقهاء أساسا، ولكنها في تبعية فكرية وروحية للقيروان. توسعت منطقة الميناء، على وجه الخصوص، حول باب البحر وبالقرب دار

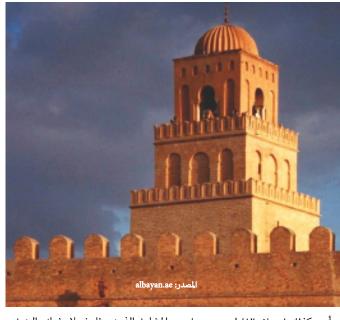
وقد هيمنت في هذه الفترة الأساطيل الإسلامية على البحر الأبيض المتوسط حيث تطورت تجارة إسلامية واسعة النطاق. و قد استفادت تونس من موقعها على الطرق البحرية الرئيسية فهي تقع مقابل صقلية ، التي غزاها الأغالبة منذ عام 827 ، وهي أيضًا عند مفترق طرق بين حوضي البحر الأبيض المتوسط وتشكل محطة في الطريق نحو مصر وسوريا. لذلك لم تعد السواحل منبوذة من قبل السلطة، فقد وجدت فيها مدنا نشيطة نتيجة تكثف المبادلات في المتوسط و تلاشي التهديد المسيحي. وفي مقابل ذلك، فإن الحملات التي تنطلق من هذه الموانئ تسمح للملوك بالجهاد الذي يستمدون منه شرعية قوية إلى جانب الثروات المادية. لذلك كانت تشهد جميع موانئ ساحل البحر الأبيض المتوسط في بلاد المغرب تطوراً حضرياً كبيراً.

صناعة السفن. ويمكن الوصول من هنا إلى

إسبانيا باتباع الساحل.

تحت الحكم الموحدي

منذ هذه الفترة بدأنا نشهد تدريجيا إعادة التوازن للعلاقة غير المتكافئة للغاية حتى الآن بين القيروان وتونس. وقد اختار الأمير الاغلبي إبراهيم الثاني مدينة تونس كعاصمة وذلك بعد أن أخمد تحردها.كما



أدى كذلك استيلاء الفاطميين على السلطة منذ سنة 909 م إلى التخلي المؤقت عن القيروان لصالح عاصمة وقد استمر هذا النمو خلال العهد حكم خلفائهم الزيريين، حيث تم بإضافة رواق وقبة وأعمدة على الموانب الثلاثة للصحن. لكن حتى القرن الحادي عشر، كانت تونس القين المثال، فقد كان بالقيروان. وعلى منيل المثال، فقد كان بالقيروان وعلى على سبيل المثال، فقد كان بالقيروان طعى عين أنها لم تكن تضم سوى 15 حماما.

يتمثّل الحدث الحاسم الذي أشّر على النهيار السياسي للقيروان في هـجـرة القبائل العربية البدوية مند منتصف القرن الحادي عشرـ: الـهـلالـيـون ، الذين شبههم ابن خلـدون بـسرب من الجراد، والذين سحقوا الجيـوش الزيرية مما تسبب في تفكك السلطة والتأثير في الاقتصاد. وقد استبيحت والتأير أبي عانت من ثورات وقمع رهيب. لجأ الزيريون إلى المهدية ، وتبعهم جزء من سكان القيروان.

استقر الكثير من الناس في تونس، التي استقبلت أيضًا سكان الريف الذين لجأوا للاحتماء حذو أسوار المدينة. في ظل هذا المشهد السياسي المجزأ، تظهر سلط محلية معترف بها ذلك الوقت، شهدت تونس أول سلالة حاكمة مستقلة، والتي حكمتها لمدة قرن من الزمن، من حواسان بالاعتماد على مجلس من خراسان بالاعتماد على مجلس من

المشايخ الذين عثلون بلا شك النخب العلمية والتجارية للمدينة. وإلى هذه الفترة يعود وصف البكري الذي يستحضر العديد من الأسواق التي تبيع البضائع "التي علاً مظهرها المتفرج بالإعجاب"، وكذلك العديد من الفنادق لاستقبال المسافرين والتجار. إنه يتعجب كذلك من ثروة سكانها، الذين تحتوي منازلهم على أبواب مزخرفة بالرخام الأبيض الذي تم أبواب مزخرفة بالرخام الأبيض الذي تم الممتازة الموجودة هناك و من الأسماك التي تم اصطيادها قبالة الساحل، وأخيرًا بسبب حيوية بيئتها العلمية.

ثم استغلت تونس ازدهار التجارة في البحر الأبيض المتوسط بين التجار اللاتينيين والمسلمين. وقد أنار الأملفيون والبنادقة الطريق وتبعهم في ذلك البيزانيون والجنويين. في هذه الأثناء أصبحت بيزا تستورد الخزف من تونس بدل القيروان، في إشارة إلى الانقلاب الدائم في التوازنات، على الأقل اقتصاديًا، بين المدينتين. ومها يؤكد كذلك القوة السياسية ورما العسكرية للمدينة هو أنه تم إنقاذها عندما شرع الملك النورماني لصقلية روجر الثاني في احتلال موانئ افريقية في حين تم غزو المهدية إلى حدود سنة 1159م. وفي هذا التاريخ، يُكمل الخليفة الموحدي عبد المؤمن السيطرة على بلاد المغرب الذي أعاد توحيده في ظل إمبراطورية واسعة تضم أيضًا الأندلس. تم اختيار تونس كعاصمة لإقليم المغرب الشرقي. عودة مركز السلطة إلى المنطقة التي كانت متمركزة بها في العصور القديمة ، بالـقـرب من أنقاض قرطاج ، تشير إلى نهاية حقبة، عهد تألق القيروان، التي لا تزال تحتفظ ما هو أكثر قليلاً من مكانتها الدينية.

ככ

يتمثل الحدث الحاسم الذي أشر على الانهيار السياسي للقيروان في هجرة القبائل العربية البدوية مند منتصف القرن الحادي عشر

صدر المقال مجلة l'Histoire في عدد جانفي-مارس 2016. رابط المقال الأصلي: /https://www.lhistoire.fr //comment-tunis-d%C3%A9tr //C3%B4n%C3%A9-kairouan

في الشعب والديمقراطيّة



بقلم: إبراهيم خليفي أستاذ فلسفة ومترجم تونسي khlifi22ibrahim@gmail.com

الديقراطية إذن هي حكم الشعب بالمعنى الإيجابي للفظ، أي القادر على تحديد خياراته

ما الذي نعنيه بالديمقراطية؟ وماهى

تجسيد شرط إمكان الحكم وتحقق

سيادة هذا الشعب وبالتالي الديمقراطية كنظام ممكن الحضور. إذا دأبنا على أن مفهوم الديمقراطية مفهوم مركب من لفظين، أي الشعب والحكم، فإنه يتحتم علينا تحديد

الديمقراطية التي تتألف من كل من

لفظ الشعب والحكم فيقدم معجم

المعاني الفلسفية فيها التعريف الآتي:

الديمقراطية من الاشتقاق الإغريقي

Demosويعنى عامة الناس

وCratos أي الحكم، والديم قراطية

هي نظام سياسي يُفهم حسب

التعريف التقليدي بالصيغة التي

يعطيها ابراهام لينكون (رئيس

الولايات المتحدة السادس عشر. بين

1861 و1865) على أنها حكم

الشعب بالشعب، أو حكم الشعب

لماذا القول بأن الديمقراطية تعرّف

بأنها حكم الشعب والحال أن جزء

ذلك يرجع إلى أنه في اللسان

الإغريقي يقع التفريق بين معان ثلاث

لعامة الناس أو لما سنقول عنه لاحقا

الشعب: أولا المعنى السلبي Pléthos

والتى يقابها الجماهير أو الحشود، أو

الأغلبية فعند هوميروس يعنى

مصطلح بليتوس الأغلبية التي لا

تحوز أي فضيلة والتي تشكل

الجماهير العمياء. ثانيا المعنى

الإيجابي أي Demos وظهر ذلك في

القرن 5 قبل الميلاد مع بيركليس،

اللفظ الأصلي يعني عامة الناس؟

بنفسه وللشعب.

دلالة كل منهما. هذا وإذ يرد في موسوعة "اينيفرساليس" تعريف الشعب كالآتي: " من اللسان الفرنسي peuple والأصل اللاتيني populus: مجموعة أفراد يكوّنون جماعة تتعايش ضمن نفس المجال هو المدينة أو civitas وفق نظام ما، ولفظ الشعب دون شك هو أحد المعانى السياسية التي تمتلك أحد ابلغ الشحنات الرمزية وهو لا يحمل دلالة خارج الحقل السياسي. أما

إننا بكناية الشعب أولا، نسعى إلى فكّ اللبس عن خلط اعتبار المجموعات التي تنشئ علاقات فيما بينها من كونها حشودا، أو جماهير، أو عامة، أو حتى شعبا ونحن الذين اعتبرنا أنْ لا إمكان لنصفه بالشعب إلا المتواجد داخل دولة ويفرض بالممارسة استحقاقا. ما الشرط السابق للدلالي إذن في قول فصل في الشعب؟ يبدو أن مساءلة الديمقراطية تقتضي في البدء تفكيكا لمفهوم على هيئة بنية مركبة. فالسؤال عن إمكانات الديمقراطية كنظام حكم هـو سـؤال بالضرورة عن محكوم نوعيا هو الشعب. لذلك فالقول في الديمقراطية مسبوق بالقول في الشعب. قد يقتضي اعتبار الشعب بدوره مقاما غير ذي تحديد نظرا لتباين السياقات الممكنة للقول أنَّ هذا الشعب هـو عينه. وبالتالي فإن له استعمالات حسب المقام ويصبح الإشكال الرئيسي. في الفرق بين المجموعات التي يقال عنها شعب، وهنا يُدفع به إلى تساؤلات في علاقة بالكينونة أولا وبالوضع ثانيا أي من جهة السيادة والحكم: وهنا مكن الارتباط الوثيق بين الشعب والديمقراطية على ألا يكون شعبا إلا ما كان مجموعة بشرية تُحكم ديمقراطيا. فنشير منذ البداية إلى ديمقراطية الشعب بين الإمكان واللاتقرر من خلال الأصل الاشتقاقي للكلمة، إذ ليس ثمة إمكان لفصل المفهومين كل على حدة والحال أن الديمقراطية نفسها لا تقال إلا وجه الإرتباط بما يسمى شعبا بما أنها في دلالتها حكم الشعب.

علاقتها بالشعب؟ ماهى السياقات الممكنة للقول عن مجموعة أفراد أنها شعب؟ ما مدى إمكانات سيادة وحكم الشعب كتجسيد حقيقي للديمقراطية؟ وما المأمول في نظام ديمقراطي في علاقة بالسيادة

تجدر الإشارة مسبقا أن هدفنا في هذا البحث يتعلق بالنظر في مرحلة أولى في الصياغات الممكنة لكناية مجموعة ما بلفظ الشعب، وفيها نرصد خاصيات التعريف فَرْقاً بين ما هـو الشعب وما ليس هو شعبٌ في علاقـة بالفعل. وفي مرحلة موالية نعتزم توضيح حضور هذه الممارسة بماهى

بناء على هذا فإن الديمقراطية إذن هي حكم الشعب بالمعنى الإيجابي للفظ، أي القادر على تحديد خياراته، ومن هنا يكون التساؤل عن الكيفية التي يمكن من خلالها التمييز بين المجموعة التي يجب القول عنها شعبا مادامت ليست كل مجموعة، على ما يبدو، مكن اعتبارها شعبا. فماهى السياقات الممكنة للقول عن مجموعة أفراد أنها شعب؟

مكن طرح فرضيات متباينة في تعريف لفظ الشعب، كأن نضع الأمر بديهيا أنه متعلق مجموعة أفراد، لكن يبقى وضع هؤلاء الأفراد هو الإشكال. بمعنى آخـر أيّ وضع للأفراد حتى يمكن القول عنهم أنهم شعب؟ هنا في بادئ الأمر نتجه إلى فرضية وجوب حضور مفهوم الدولة ككيان سیاسی: إذ لیست أی مجموعة تتواجد علائقيا يقال عنها شعب، بل وحتى في الظاهر كل مجموعة أفراد تتواجد علائقيا ووفق نظام سياسي. يطرح ذلك فرضيات أخرى في التمييز بين ما سيسميه باديو لاحقا الشعب الرسمي ونقيضه، أي المزيف وهنا بالأساس يحدد حضور الدولة من عدمه دورا في إكساب ما نسمّيه بالشعب في اعتباره رسميًا كشعب، معنى أننا أمام مفارقة تخص جملة من الأفراد، في مكان ما وزمان ما، من حيث إمكان اعتبارهم شعبا من عدمه.

العدد 13، مارس 2022



النطق. بمعنى أن مجموعة الجمع

المسمّى بهذه الكلمات لا يمكن أن

تتجمع في نفس المكان ولا التحدث

في نفس الوقت، حتى على الرغم من

تجلي الظاهرة في كلِّ من المكان

والزمان. ومهما يكن الزمان والمكان

حيث تُعْلَنُ السيادة الشعبية -سلطة

التشريع الذاتي للشعب-فلا يتعلق

الأمر على وجه التدقيق بلحظة بل

بسلسلة أفعال كلامية وهكذا فالقول

«نحن الشعب» لا يفترض ولا يصنع

وحدة ولكن يؤسس سلسلة مناظرات

حول طبيعة الشعب وحول وما

هكذا فالإقرار «نحن الشعب» في

مرحلته اللغوية هو عبارة نستعملها

لرمزية شكل سيادة شعبية مشترطين

أن يقدر الأشخاص على الفعل معًا

من أجل أن تحصل التسمية، ومن

أجل أن يتجمعوا في شكل سياسي

جمعى مدركين أن التكوين الذاتي هو

مسار جماعي ومشترك. إن العبارة لا

تقول من هؤلاء الأشخاص، ولكنها

تبين شكل التكون الذاتي أين تتم

المناظرة لمعرفة من هم ومن يجب

هذا التكون الذاتي هو بداية حكم

الشعب بذاته، فهو بهذا المعنى يعبر

عن إرادة بعينها ومطالبة ما، وهـذه

الإرادة بدورها تظل منقوصة نظرا

أن يكونوا.

مكن أن يكون الشعب هو-هو انطلاقا من عملية تكوين العبارة نفسها لغويا، معنى أن اللغوى نفسه يعدّ شرطا ايتيقيا في اعتبار الشعب شعبا، وهكذا فالشعب هو حاصل هُوويّ انطلاقا من اللغة قبل الفعل، إلا أن السؤال يظل دامًا عمّا هو الشعب كيفا من جهته اللغوية هذه. ذلك بتطويع كلمة الشعب على أساس فعل كلامي ينتج عـمـلا أثناء نطقه، كأن نقول نحن الشعب فنقول عمليا تظاهرا، تمردا، عصيانا ومقاومة وغيرها من المعاني التي تحيل على الممارسة. إن قول «نحن الشعب»، هنا وبهذا المعنى، هو أولا وقبل كل شيء فعل تسمية ذاتية وتكوين ذاتي. كأن يقول أحدهم «نحن» في الوقت الذي يقول فيه آخر، ثم بالمعاودة تقولها المجموعة معا، وبهذا، يسعون إلى التكون «كشعب ». هكذا، وعبارة عن فعل كلامى، تكون كلمة «نحن الشعب» نطقا يسعى إلى إظهار التعددية التي [تُكْسبها] تسميتها. إنها لا تصفها، وإنا تسعى إلى جعلها موجودة. فهي إذن شكل تكون ذاتي لغويا يعمل داخل «نحن الشعب».

تقول جوديث بيتلر " «نحن الشعب » هي بكل تأكيد بداية تصريح لغوي طويل المدى، يعبر عن مطالب أو عن رغبات، أو يعلن عن حركات قادمة ومطالبات سياسية. إنها مقدمة تفتح السبيل إلى مجموعة تأكيدات مخصوصة، أي بداية جملةِ تُهيئ لمطلب سياسي مهم"¹. لماذا القول أنه تصريح لغوي طويل المدى؟

إن الظروف الزمنية حيث ينخرط الفعل الكلامي، تسبق وتتعدى، في آنِ، لحظة

لكون " نحن الشعب" هذه تبقى في مستوى لغوى وذلك يقتضى حضورا ملموسا ونقصد مَوْقع الجسد داخل الفضاء العام. هذا ونعني به الفعل الكلامي، فذلك يتطلب جسدا كعضو للقول، يكون شرطا عضويا ووسيلة لهذا القول. إن الجسد لا يتحول إلى فكر خالص عندما يتكلم، بل إنه يمثل الشروط العضوية للتلفظ. وإذا كان القول يُفهَمُ بشكل مقيد على أنه فعل صوتي، فليس هناك قول دون عضو للقول، وليس هناك فعل كلامي بدون لا شيء عضوي.

إن تشكل الأفراد على نحو جمعى يكسبهم وصف الشعب، ذلك أن الاجتماع

هكذا، وبنفس الطريقة، لا يوجد فعل لغوي خالص دون أفعال جسدية، فلا توجد لحظة فكر مفهومية خالصة منفصلة عن شرطها العضوي. ومما يخصص معنى عبارة »نحن الشعب :«هـو أن العبارة سواء مكتوبة في نص أو منطوقة في الشارع، فهي تعنى تجمعا على وجه فعل، والذي يُسمّى ويتكون. في هذا الفعل، تعمل هذه الأخيرة على نفسها، مع شرط تعدد الأجساد المتأصل، سواء تم التعبير عنها بالكلام أو لم يتم. هذا الشرط الجسدي، الجمعي والديناميكي، هو بعد تكويني لهذه اللحظة.

لا يوجد فعل لغوي خالص دون أفعال جسدية، فلا توجد لحظة فكر مفهومية خالصة منفصلة عن شرطها العضوي

يصبح الأمر سؤالا

عن مدى إمكان

السيادة بدورها، أي

هل أن الدعقراطية

هي فعلا حكم

الشعب دون

استثناء؟

هو صفة الشعب الأولى بما هو بداية الممارسة التي ترتبط بدورها بمفاهيم أخرى من قبيل الحق، العدالة، الحياة. إذ لا يمكن من هذا المنطلق الحديث عن مفاهيم من قبيل الحق دون المرور بحرية الاجتماع باعتبارها المفهوم المؤسس لديمقراطية الشعب، إذ يحيل هذا الأخير في هذه الوجهة على إمكانات كينونة، هي كينونة الشعب، على أنه لا يكون عينه إلا بتحصيل حرية الاجتماع من منطلق الممارسة الملموسة للفعل.

إذا كان القول بالشعب قولا ملموسا، فإن ذلك لا يقف عند اللساني بل إنه بنفس الإمكانات حضور جسدي صاخب: حيث يلعب الجسد دور المحرك لغويا وحيويا على حد السواء باعتبار أن الشعب أولا هو جملة أجساد تتعاضد وتكون جبهة مقاومة بالاجتماع، ضد الانتهاكات السياسية التي من شأنها أن تؤثر بالنسيان على معنى الشعب. إن الشعب حركة حياة يتحقق من خلاله الاجتماع بفرض تعريف مميز للأجساد، أين يضمها المكان والزمان بصيغة الجمع ويصبح مفهوم الشعب ديمقراطيا أساس الحرية والحق والحياة، وتكون الإشارة في ذلك خاصة إلى معنى الحياة بمعناها السياسي كميزة اختلاف، حياة جديرة بالاستمرار بفرض وجهة للثورة، تتميز عن العيش باعتباره هو الآخر شكل استمرار حيوي غير ذي نوعي، بل أكثر من ذلك حياة الجسد المقاوم، المُتموْقع اجتماعيا ضمن خط مقاومة لكل أشكال الانتهاك ضد العدالة معانيها المختلفة والهشاشة وتناول الحق بوجه غير محمل الجد.

إذا كان الشعب بهذا المعنى هو الذي يؤكد ينتظم وفق نظام سياسي والذي يؤكد بالقول والفعل موقعا داخل النظام السياسي وموقفا بقدرته على الاجتماع والتعبير، فهل أن ذلك يعني أن ما كان شعبا هو فقط أغلبية مسموعة داخل الدولة؟ ألا يمكن أن تكون الحشود الخارجة عن النظام مهما كان نوعه ونوعها شعبا؟

ليس أنسب في هذا السياق من إقرار آلان باديو الآتي: "إن [ما نقول عـنـه] «شعب» ، في الديمقراطيات البرلمانية خاصة، قد أصبح في الحقيقة فئة

الحق في الدولة. و بالصورة السياسية الزائفة للتصويت، «الشعب» المتكون من مجموعة ذرات بشرية"².

إن هذا لا يزيد إلا عمق الشكوك على معنى الشعب، إذ هي تطرح بدورها شكوكا على مفاهيم أخرى تحايثه، أولها الحق، باعتباره ما به يعرف الشعب وهو إمكان يتقوم حسب الاتفاق عما نسميه شعبا، ذلك أن وصف الشعب ليس وصفا يتقوم غرورة إعادة النظر فيه لكونه متعين حسب التقويم السياسي لدولة ما للتجمع البشري.

هُة في هذا الصدد معنى للحديث عن »عامة الشعب «بالمعنى الإغريقي pléthos، باعتبار أنهم ما يُعتبر، في نظر الدولة، الطرف الهجين. ونحن في تعريفنا هذا نصبح على حافة الموضوعية الاجتماعية والاقتصادية. إذ أن المجتمعات الديمقراطية تكوّن نواتها بمعزل عن الكتلة المغيبة من البروليتاريين والأقليات الهشة من جهة مشاركتها في الدور السياسي ونشاط إدارة الشأن العام، أما المجتمع الموجود نفسه، كما تعتبره الدولة، فمتكون من خليط من الأرستقراطية الوراثية والأثرياء. ومن هنا يصبح من المشروع الحديث عن »شعب «فيما يخص هذا المجموع، بقدر ما ليس له الحق، في نظر الدولة، في الاعتبار الذي يتمتع به الشعب الرسمي.

إن سيادة الشعب بهذا المعنى هي سيادة طبقة دون أخرى، خاصة في ظل نظام ديمقراطي تمثيلي، يمثّل طبقة منتخِبةً دون أخرى، مما يقتضي تعرية الزيف السياسي في تسمية الشعب من جهة أنه لا يحكن أن يكون خاصية تجمع بشري داخل دولة، وفق نظام وقانون ومؤسسات، أي ما تسميه الدولة سياسيا شعبا. وإنما يكون الأحق تسمية الشعب، جملة التجمعات على أساس عرقي، قبلى أو عمالي خاصة والتي تتواجد خارج الإطار السياسي للتجمع، أي الدولة. ويؤكد في ذلك قول آلان باديو: "إذا كانت السيادة لدى روسو مازالت تلك التي تَنتُج عن تجمع شعبى فعال وحَيِّ -ولنتذكر أن روسو يعتبر البرلمانية الإنجليزية بمثابة

تدجيل-، فمن الواضح اليـوم أن هـذه السيادة، بكونها تعدد آراء عاطلة ومبعثرة، لا تُكُوِّنُ أي موضوع سياسي حقيقي" 3

لما كان الموضوع السياسي في جوهره موضوعا نشيطا وفاعلا، بمعنى أنه في الأصل مقاومة، فإنه يتضح، أوليا، أن جوهر نتاج للمقاومة يكون الشعب فيها سلطة مقاومة لسلطة كيان سياسي ورغبة في انتزاع التسمية التي أصبحت حكرا على الدولة تحت الاعتبار الرسمي الذي يفصل القول فيما يخص المسمى شعبا عما سواه. وهكذا نتبين جدارة التسمية من جهتها الاجتماعية ليصبح الأدق بأن نبحث في الشعب خارج التعريف السياسي بل أكثر منه الاقتصادي وبالتالي في علاقة بالعمل ووسائل الإنتاج وحقوق العمال والأقليات...

من هذا المنطلق يصبح الأمر سؤالا عن مدى إمكان السيادة بدورها، أي هـل أن الديمقراطية هي فعلا حكم الشعـب دون استثناء؟ وإن يكن، فأي ديمقراطية هـي ديمقراطية الشعب الذي كنا قد اعـتبرناه معنى إيجابيا وفقا لقدرته على تحديد اختياراته؟

إذا كان الشعب الحر ديمقراطيا هو الشعب المدرك »أننا لسنا مضطرين إلا لطاعة القوة المشروعة« بعبارة روسو، فذلك يستوجب النظر في أساس المشروعية و [سؤال] التوتر الذي لا يمكن تجاوزه بين الشرعية والمشروعية. ومن واحدة لأخرى يظل النداء دامًا مفتوحاً. وإذا كانت الحرية هي «طاعة القانون الذي وضعناه «، فإنها تعنى نفيها الخاص، اي »التنازل الكلى «من طرف كل شريك عن جميع حقوقه للمجموعة كلها، لأن »كل واحد يهب نفسه للجميع لا يهب نفسه لأحد«، كذلك مثلما يؤكد روسو. من خلال وضع كل واحد شخصه تحت الوجهة السامية للإرادة العامة، وكل عضو يصبح »جزءا لا يتجزأ من الكل«، حيث يتكون شخص عام أو »جسد سياسي«، يسمى الدولة عندما يكون سلبيا ويسمى صاحب سيادة عندما يكون موجبا. إن الخضوع الطوعي إلى القانون غير الشخصي الصالح للجميع يحل إذن محل التبعية الشخصية والاعتباطى في النظام القديم. ولكن ذلك على حساب شمولية متفاقمة، تتعارض على الفور مع افتراضات العقد الليبرالية ومع الفردانية التملكية.

إن هذا العقد يضع هكذا بين المواطنين «المتساوين بالمواضعة وفي الحق«، مساواة معنوية ومشروعة، وهكذا فإن الإرتباط الأول للديقراطية الحقيقية هو ارتباط مسألة الديقراطية بمسألة الملكية.

إن فعل الارتباط هو «إلتزام متبادل «من العامة مع الأفراد. وهو يفترض أن كل متعاقد يتعاقد مع نفسه على أنه عضو من الدولة وعضو ذو سيادة، وهكذا يلزم نفسه تجاه الكل الذي ينتمي إليه. إلا أن طبيعة «الجسد السياسي «يعني بالتالي استحالة أن يفرض صاحب السيادة على نفسه قانونا لا يمكن أن يكون هناك أي نوع من القانون الأساسي يكون هناك أي نوع من القانون الأساسي الإجباري بالنسبة لجسد الشعب، ولا حتى للمراجعة دامًا وأن السلطة التأسيسية غير للمراجعة دامًا وأن السلطة التأسيسية غير عق التمرد هو الذي يملك قوة القانون، فإن حق التمرد هو الذي يملك قوة القانون، وتلك هي ديمقراطية الشعب الحقيقية.

ينتج عن هذا استحالة التمثيل، بما أن ساحب السيادة، بهذا وحده، هو دائما ما يجب عليه أن يكون ⁴. إذا كانت السيادة ليست سوى «ممارسة الإرادة العامة «، فلا يمكن لها في الواقع أن يقع التنازل عنها. إن السلطة يمكن أن تُفوّض، أما الإرادة فلا وبالتالي فإن مهمة الشعب الحر هي تثوير الديمقراطية التي ظلت رهن الإتمام كي لا يتحول نقد الديمقراطية البرلمانية الموجود في الواقع إلى جهة الحلول السلطوية والمجموعات الأسطورية.

يتحدث رانسيار في هذا السياق عن «الفضح الديمقراطي .«فيم يمكن أن تكون الديمقراطية فاضحة؟ بشكل دقيق لكونها يجب عليها، من أجل أن تدوم، أن تذهب دوما أبعد وتنتهك بشكل دائم نظمها الموضوعة، بأن تدفع الأفق وأن تضع المساواة تحت اختبار الحرية [للتحقق من إمكان مقاومتها]. لكونها تطمس دون انقطاع مشاركة السياسي والاجتماعي غير المؤكدة وتتحدى خطوة بخطوة انتهاكات الملكية الخاصة وتعديات الدولة على الفضاء العام والخيرات المشتركة. لأنها بالنهاية يجب أن تسعى بشكل دائم إلى توسيع التمكن من المساواة والمواطنة في كل المجالات. وإنما ليست هي عينها إلا ما كانت فاضحة إلى النهاية.

تتنزل كل هذه المفاهيم ضمن معنى واحد وهو ممارسة الحريات. هذه الممارسة إذا ما تقفينا تجسدها فسيكون من غير المنطقي الحديث عن ممارسة للحريات في أنظمة سياسية شمولية أو حكم استبدادي

بل إنه كها ارتبط الحديث عن الشعب بالدهقراطية فهو يرتبط كذلك في الحديث عن الحريات بالدهقراطية عن الحريات هي الفضاء الضامن للإرادة العامة بعبارة روسو، لممارسة الحريات والحقوق. وإذا كانت الدهقراطية في السياسية وانخراطا في الشأن العام، فإنها لا تخلو من بعد معياري: هو فإنها لا تخلو من بعد معياري: هو تحقق العدالة وضمان الحرية في التعبير ومنه تحصيل المواطنة التي بدورها تعتبر أساسا للهقراطية الشعب.

إن المواطنة لا تتحقق في إلا في ظل نظام ديمقراطي، هذا النظام الذي تكون فيه الإرادة العامة مصدر كل تشريع وتكون المصلحة العامة هي المحددة للقوانين ولممارسة السلطة ولكن السؤال الأساسي الذي لا نكفّ عن طرحه بعد روسو هو: كيف مكن إيجاد دمقراطية حقيقية؟ إنا الديمقراطية بهذا المعنى غاية منشودة دامًا، مثل أعلى للوجود البشري عامة ولوجوده السياسي على وجه الخصوص إذ تحيل على المساواة والعدالة والنظام وهى كلها قيم أبعد ما تكون عن ملاءمة نوازع البشر وميولاتهم الأنانية لهذا يقول روسو " لو وجد شعب من الآلهة لحكم نفسه ديمقراطيا. وإن حكومة كاملة لا تلائم البشر".

يدفعنا كل هذا إلى التساؤل بدوره عن مدى استحالة القول بديقراطية الممارسة ومنها الحق والمواطنة وغيرها من مفاهيم حاصلة عمليا كما عن مأمول الديقراطية تلك بين الحضور والغياب؟

من الواضح أن "الشعب"، و"الحرية"، و"التقدّم" هي العناصر الأساسيّة المكوّنة للديمقراطيّة. لكن إذا أَفْلَتَ عنصر من هذه العناصر وانشقّ عن البقيّة ليصبح مبدأ منعزلاً ومتفرداً، فإنّه يتحوّل إلى خطر يداهم الديمقراطيّة من الدّاخل، فإنّنا نتحدّث حينها عن "الأعداء الضامرين للديمقراطيّة". يبدو أنّ مخاطر الديمقراطيّة ليست فقط وافدا خارجيا حتى تصبح شغفا كما يعبر عنه تودوروف، أي أن "يهزنا الشغف الديمقراطيّ أملاً في الانعتاق من "قلق" الأنظمة المستبدّة ونشداناً

للحريّة فكراً ووجوداً وأخلاقاً وسياسة. فالشغف الديمقراطي يحل حيثما غابت **هذه الديمقراطيّة"**5، بـل هـى مخـاطـر متأتية من فرضيّة عزل أو تمييز أحد مكوّناتها، فما يجمع بين هذه المخاطر الملتصقة بها على اختلافها هو حضور صورة من صور "الإفراط" و"التطرّف" و"المغالاة. وإذ يظل الخطر الرئيسي متأتُّ من التحديد المفهومي للديمقراطيّة على أنّها "حكم الشعب"، فالشعب هو المحدّد لماهيّة الديمقراطيّة، لكن من تنقصه الفطنة في التمييز بين القرارات هو الـذي عِثّل خطراً على الديمقراطيّة، فينخرط الشعب انخراطاً مباشراً في القرار تحت تأثير العاطفة وبعيداً عن العقلانيّة، ولعلّ حادثة إعدام سقراط استجابة لرغبة شعب أثينا وتحت تأثيرات البلاغة السفسطائية خير دليل على ذلك، وهـذا الخطر يسميّه تودوروف الشعبويّة.

إلا أنه ورغم قصورها اللامختزل يبقى أفضل ما يُنسب إلى الديقراطية هو ما ينسبه لها جاك رانسيار على أنها دائما فاضحة، لكأن قول الديمقراطية يتحد بحكم التعريف على أنها فعل فضح وتعربة.

الديمقراطية إذًا تتموضع موضع الوجه المقابل لنفس العملة مع الشعب بما هـو في الأصل اجتماع أفراد وفق نظام سياسي يختاره، على أن لا إمكان لأن تكون مجموعة ما شعبا دون ديمقراطية. على هذا النحو إذن، تصبح المسألة السياسية في الديمقراطية مسألة تعبير، تعبير حر إذا ما اقتضى الأمر مقاومة وعصيان ضد كل نظام يقيد إرادة التعبير. وإذا كان المجتمع حرا وديمقراطيا بشكل معقول، وإن أمكن لكل فرد فيه أن يعبر، فلن يكون للمقاومة على ما يبدو موجبا لأن تكون. كما لو أن المعارضة، نـوعـا مـا، لم يكن ليُعبَّرَ عنها على شكل المقاومة. إلا أن العصيان شكل مقاومة والمقاومة بدورها إذن لها مكانها جيدا في الديمقراطية كلما تعلق الأمر بضرورة فضح على الشكل المخصوص للعصيان المدني وللتعبير وللديمقراطية.

))

الديمقراطية إذًا المتموضع موضع الوجه المقابل لنفس العملة مع الشعب بما هو في الأصل اجتماع أفراد وفق نظام سياسي يختاره، على أن لا إمكان لأن تكون مجموعة ما شعبا دون ديمقراطية

الهوامش

¹Alain Badiou, Pierre Bourdieu et Autres, *Qu'est-ce qu'un peuple*, Paris, La Fabrique éditions, 2016, p.34.

²Ibid, p.4

³Ibid, p.7

⁴Jean-Jacques Rousseau, *Le contrat social*, Paris, Aubier, 1943, p. 187.

⁵Tzvetan Todorov, *Les ennemis* intimes de la démocratie, Paris, Robert Laffont, 2012. p.13.

بقلم: **حمزة عمر** رئيس جمعية تونس الفتاة hamza@tounesaf.org

لم تخرج الثقافة الوطنية منذ عقود عن تصوّر إداري ضيّق للغاية

عظيما ويتأسّى لكون صاحبه لم يحظ هيكليّة تاريخية، بالدولة. ما يستحقّه من الاهتمام. تدور الكلمة بين الحاضرين الستّة ليتداولوا تقريظ الكاتب، ثمّ يتسـلّـل أغلبهم قبل نهاية الجلسة، فلا يبيع الكاتب أكثر من نسخة أو نسختين. قد يكون هناك بين الحاضرين شاب أو شابان حضرا بدافع الفضول، ولم

يستوعبا شيئا، وقد يقرّران عدم

الحضور مجدّدا إلى مثل هذه

التظاهرات.

الثقافة الوطنية بين الرثاثة والريع

جدرانها. هناك عدد من الكراسي صحبه الّذين يرطنون طويلا عن تبحث عن أيّ تغيير. المتهالكة مخصّصة لجلوس تأثّره بجون لوك غودار. قد يكون الحاضرين، إضافة إلى كراس محطّمة المحتوى ذا جودة، لكنّه لا يروم بـأيّ ملقاة في طرف القاعة. أمام طاولة حال من الأحوال التأثير بشكل عتيقة عليها مفرش مثقوب، يجلس إيجابيّ في نظرة عموم المتابعين من كهلان، أحدهما الكاتب والآخر أفراد هذا الشعب، ولذلك من صديقه. ينظّر الأوّل بعبارات فخمة الصعب أن ندرجه في إطار ما نسمّيه حول قضايا صعبة، ويوافقه الثاني في الثقافة الوطنية، وهي الّتي تروم حماس معتبرا ما قيل فتحا معرفيًا ذلك، وعادة ما ترتبط، لأسباب

اختارت الدولة منذ السنوات الأولى للاستقلال اتباع سياسة "الدولة المخطّطة" في الميدان الشقاف1، أي الدولة الّتي تخطّط وتصمّم وتنفّذ المشاريع الثقافية عبر هياكلها على المستوى الوطنى والجهوي والمحلّي. قد يكون اختيار هذا النموذج وجيها

عند الحديث عن الثقافة الوطنية في طبعا لا تختزل هذه الصور كلّ يكون ساهم فعلا في إرساء ثقافة وطنية تونس، هناك صور معيّنة عكن أن المشهد الثقافي بتونس. عكن أن عبر تمكين الشباب خاصة من الفضاءات تخطر بالبال: قاعة صغيرة الحجم في تخطر بالبال مشاهد أخرى عن حفل الملائمة لتنمية مواهبهم الأدبية والفنيّة دهليز أو ما يشبه الدهليز. القاعة لم استقبال بفضاء ثقافي خاص بإحدى ومن التعرّف على أبرز المنتجات الثقافية تُطل منذ سنوات عديدة، ولذلك ضواحي العاصمة احتفاء بالفيلم لعصرهم. غير أنّه مرور الزمن، أنتجت تنتشر بقع من الاسمنت على طول الجديد لمخرج لا يعرفه إلّا ثلّة من هذه السياسة بنية بيروقراطية ثقيلة لا

لدينا في تونس حوالي 225 دار ثقافة. هي بنية تحتية هامة ومنتشرة في مختلف أنحاء البلاد، لكن ما الّذي تقوم به هذه الدُور فعلا؟ التأثير إيجابا على ثقافة من يقطنون بجوارها ليس من أهدافها، بل أنّ الكثيرين منهم لا يعلمون حتّى بوجودها. هناك تقارير إدارية ترفع عن عدد الأنشطة (لا يهمّ من حضرها وكيـف أثّرت فيهم)، وهناك عدد من خرّيجي لم تخرج الثقافة الوطنية منذ عقود التعليم العالى يتقاضون أجورا كمنشّطين. عن تصوّر إداري ضيّق للغاية. يبدو أنّ هذا في حدّ ذاته كاف لإرضاء الدولة، ممثّلة في مسؤوليها، عمّا تفعله في هذا المجال. صحيح أنّ نقص الإمكانيات قد يلعب دورا في ذلك، لكن كان بالإمكان تجاوزه لو وُجدت هناك إرادة لذلك. لذلك تسود مظاهر الرثاثة المذكورة آنفا والمنفّرة من العمل الثقافي دون انزعاج يُذكر من السلطات الثقافية. وإن وجدت في تلك الفترة من تاريخ البلاد، وقد بعض المحاولات لتجاوزها، فذلك راجع في



العادة إلى الجهود الفرديّة لبعض العاملين الّذين مازالوا متمسّكين بحماسهم رغم غياب التشجيعات.

حوّلت هذه الرؤية البيروقراطية المجال الثقافي من قاطرة لتغيير العقليات إلى مجرّد ربع. هذه الكلمة أصبحت متداولة اليوم عندنا في عديد المجالات، لكنّها ربّما لا تصدق على أحدها كما تصدق على الثقافة. جميع آليات الدعـم أبواب مشرعة على الفساد والمحسوبية. لا تخضع شراءات الكُتب في وزارة الثقافة عادة إلى مقاييس تتعلّق بالجودة بقدر ما تخضع إلى علاقات الناشر بالمسؤولين القائمين على هذه الشراءات. كذلك الأمر فيما يتعلّق بدعم الأفلام والأعمال المسرحيّة. قد تشتري الوزارة عددا من العروض ترضية لصاحبها، ولا يهم فيما بعد إن عرضت أمام قاعات خالية. منذ بضع سنوات، فجّرت المرحومة نورة البورصالي مفاجأة لمّا صرّحت، وهي

آنذاك عضوة لجنة التشجيع على الإنتاج السينمائي، أنّ الوزارة تدخّلت لإضافة أفلام إلى قائمة الدعم لم تصادق عليها اللجنة، وسبق أن تحصّل أصحابها في الأعوام الماضية على مبالغ ضخمة. لم يل هذا التصريح طبعا أيّ تحقيق جدّي.

توفّرت لبلادنا فرصة استثنائية خلال العشريّة الفارطة لتتحوّل إلى قطب ثقافي داخل العالم العربي، ذلك أنّها كانت لعدّة سنوات البلد الوحيد في المنطقة الذي له مناخ من الحريّات قادر على استقطاب المثقّفين والمبدعين العرب لإنتاج أعمالهم انطلاقا من تونس من دون الرقابة المسلّطة عليهم في بلدانهم. كان من الممكن اغتنام هذه الفرصة لو كانت هناك رؤية حرصت بشكل جدّي على ذلك، لكنّنا في بلد الخُطب، لا بلد

الرؤى.

في كتابه المعنون "في الجماليات"، يتحدِّث ادغار موران عن ارتباط الإبداع الفني لفترة طويلة بدعم المحسنين والرعاة قبل أن يستقل عنهم تدريجيًا ليُصبح في تبعية متنامية للسوق ويتحوّل إلى سلعة. ليس لنا في تونس، على كثرة الترنم برأس المال الوطني، من الرعاة (mécènes)من يتجهون بشكل جدي إلى دعم الثقافة إلّا إن كانت في إطار مهرجانات تقوم بالإشهار المباشر

محدودة، ولكنّها تتنامى كما نراه في "أعمال الرجل الواحد" الّتي لا تنفك تلقى إقبالا عريضا. بين هذا وذاك، ما يزال للدّولة دور تلعبه في هذا المجال، ولكنّه يرتبط أوّلا وبالأساس مراجعة

سياستها (أو لا سياستها) الحالية

والإجابة عن سؤال: أيّ ثقافة نريد؟

لمنتجاتهم. أمّا التبعية للسوق، فلا زالت

حوّلت هذه الرؤية البيروقراطية المجال الثقافي من قاطرة لتغيير العقليات إلى مجرّد ريع... جميع آليات الدعم أبواب مشرعة على الفساد والمحسوبية

¹حول ثماذج تدخّل الدولة في الثقافة، انظر: عائشة القلّالي، "في مفهوم السياسة الثقافية"، **الحياة الثقافية**، عدد 247، جانفي 2014، ص. 94 وما بعدها.

لوحة وعشر قصص



بقلم: كلثوم عياشية قاصة وروائية Kalthoumaya34@gmail.com

قصص قصيرة جدا: بقلم كلثوم عياشية

لوحة منشورة على فايسبوك، توحى

للكاتبتين بسيناريوهات مختلفة

المواضيع ترتبط جميعها باللوحة

قصة 1: غصّة

ما زلت أمعن في الهرب من نظراتها المنكسرة تخفضها بعد كلّ صفعة تتلقاها في استسلام، ومن إحساس بالعجز عن ردّ أذاه عن كلينا. أشتاق إليها... إلى كفّها تدفعني بعيدا ثمّ تعود إلى انتظارها المقيت. كم أحتاجها كي لا تكفّ الطّريق.

قصة 2: التفاتة

خطوات حذرة وحفيف ثوب ولمسات عطر دافيء تملأ روحي. أهمّ بها إذ تنحنى، لكنها، تشيح بوجهها خفرا. كم غفوت منتظرا ثمّ رسمت طيفها حتى يحين التقاء العيون!

قصة 3: زائر سماوي

عيل صبري منتظرا أن تكفّ عن

ثرثرتها والانحناء استرسالا في ضحكة مائعة جميلة. هي مديدة القامة ناعمة رقيقة، لكنّها لجوجة. لم تطق الوقوف وأنا أحاول رسم لوحة الملاك، اكتفيت بما علق في ذهني، قبل أن تشيح بوجهها وقد تعكرت ملامحها إذ نهرتها، وعولت على

قصة 4: رسّام

دلالة العنوان.

التقيتها خلال ترحالي بين التلال في دير معلق على قمة جبل من الجبال



الوعرة. أحسنت وفادتي واعتنت بي. أردت تخليد وجهها الملائكي في واحدة من رسوماتي، لكنها انسحبت إذ انحنيت، قالت: "لا تخرجني مما أنا فيه، فقد اكتفيت بالنسيان!". عدت إلى اللوحة أرسم تفاصيل ثوبها والأصابع الناعمة.

قصة 5: هروب

أحاول ألا أحدث ضجة متسللة إلى مخدعی، كلّ ما أخشاه أن تندس معی الكآبة القابعة في الظلام وترسم تفاصيل الأحلام.



بقلم: ر**جاء عمّار**

شاعرة وقاصة

باحثة في علوم الإعلام والاتصال

rajabalsam@gmail.com

قصص قصيرة:

بقلم رجاء عمار

قصة عدد 1: يطلب يدها

ملأت أجواء السعادة المنزل، واستعدت العائلة لهذه المناسبة التي ترقبتها طويلا. وأخيرا، هناك من يريد الزواج من إحدى البنات الأربع، ويبدو جادا عكس من سبقه من المتراجعين فجأة، أو الناكصين بوعد الخطبة، أو المختفين، أو الرافضين للإجابة على الاتصال المتكرر للاستفسار عن سبب الإحجام.

رجت كل صبية أن تحظى به نصيبا، وإن لم يخترها فتسر لأختها، لقد قدم الأسبوع الماضي، إذ تعمد الأب استضافة هذا الموظف الجديد الذي التحق بشركة هو ما أعلمه أنه يريد الزيارة مجددا ليطلب يدها... لم يحدد من منهن... ليته فعل ليجنبهن توتّرا يكاد يفتك بهدوئهن، غير لنهن حاولن التحلي بالصبر وتغليب مشاعر البهجة التي هبت نسائهها لتحرك مجرى الحياة الراكدة.

جاء في موعده، واستقبل بحفاوة بدت له مبالغا فيها حتى أن شيئا من التوجس انتابه، واعتراه شك من سلامة الخطوة التي سيقوم بها، غير أنه أزاحه وقرر المضي قدما فيما عزم عليه، فمنذ أن أبصرها، نالت إعجابه وظل باله مشغولا بها وتضاعف إحساسه بتفردها لذلك يريدها قبل أن يستأثر بها غيره.

أبدى استعداده لتقديم المبلغ الذي يحدد دون نقاش نظير الحصول عليها. لم ترق

قصة عدد 2: سر اللوحة

حمقى!

يصرون على التذاكي، ويرفضون النظر إلى الأمر ببساطة، يستمرون في تأويل الرمز با قد يحتمله، لكنه، لا يستحقه... يواصلون مدح رسامها ويعترفون بعبقريته، يتشدقون بمفاهيم يغمرها الإطلاق حتى تكاد تغوص في اللامعني. فهذا يعتبر اللوحة تجسيدا لرغبة التحرر، وذاك يناقضه ليسهب في تفسير ما تشي به الفكرة من تردد، وآخر يعتقد أن لعبة الكشف والإخفاء تلهب الخيال بالجزء الذي بغيابه أثبت الحضور، وغيرهم يسمون الموضوع بالشجاعة، ويذهب البعض إلى التعمق في مسألة التواجد بين عالمين و...مهما اختلفت وجهات النظر، اتفق الجميع على الثناء على رسام حرمها حقها في الكشف عن جمال وجهها الأخاذ وملامحه ذات القسامة الفريدة... جمال لو تجسد لزعزع عرش الموناليزا بنظرتها البلهاء وجلستها المستسلمة، لذاع صيتها وتنافست المتاحف لتحظى بها وتهافت سكان الأرض للوقوف أمامها متأملين منبهرين.. معجبين

حرمها من كل ذلك لسبب وحدها تعرفه، وتتمنى أن تملك القدرة لتفضحه، غير أن لا أحد يصغي إليها، فقد جربت الحديث، فلم تنتبه إليها أذن، ولا أحد تفطن إلى زاوية مغايرة تركن فيها الحقيقة عارية حينا ومتدثرة بذاتها أحيانا.

لقد ضيع عليها فرصة لن تتكرر، ليس لعجزه عن تجسيدها كفكرة، رفض تكبد جهد رسم الملامح وأبى أن يجنحها من وقته ساعات إضافية، ورغم ذلك حالفه صمتت على مضض. أكد الأب أن المال لا يعنيه، وما يهمه هو أن تحظى من سيختارها بالاحترام وتقدير قيمتها وإنزالها مكانة كريمة.
عاد الضيف إلى سيرة المال ليؤكد أنه سيدفع مهما غلا الثمن، ما جعل الأم تتأفف، أما الأب لم يشأ التسبب في هدر الفرصة، فسأل:
- "من تقصد؟ سميرة أم منيرة أم أميرة أم شهيرة؟"

عباراته الصريحة للأم، فبناتها لسن سلعة وإن أبطأن في الزواج وبلغن

من الأعمار سن الحرج، فذاك لا

يعنى أنها تنوى التخلص من واحدة

لشخص لا يعترف بالكياسة، لكنها،

-"من هؤلاء؟"

-"بناتي طبعا! ألم يسبق وعرفتك بهن في زيارتك السابقة وتحادثت معهن؟"

تلعثم الضيف قليلا ثم أجاب: -"أذكر أنك فعلت، بيد أن ذهني ما احتفظ بأسمائهن، كما إني ما جئت للخطبة!"

لم تستطع العائلة كتم شهقة استنكار، لكن الأب حاول السيطرة على أعصابه وبادر مستوضحا: " ماذا؟ أما قلت بالحرف الواحد أنك تود طلب يدها؟" أجاب الشاب في ثقة: "بلى... قصدت يد تلك التي في اللوحة التي قدمت اليوم راغبا في اقتنائها!"

موقفه بإشادته وتيقن أنه محق في الطريقة التى توخاها ولن يتخلى عنها وعن...كسله.

قصة عدد 3: تغلى ولا تفيض

فكرت أن تفعل مثل ذاك الشاب الذي في لوحة الرسام الإسباني* الذي مل من المقاييس المحددة لاعتبار رسم ما ذا قيمة فنية، وسماها الهروب من النقد ومواجهة النفس بالمختلف.

ترى في فعل الرسام استعراضا لا غير، فتفكيره أناني صرف، وأراد لفت الانتباه بهذه الطريقة لهثا وراء إحداث الضجة تماما كما يستغل البعض، في هذا العصر، السيلفي ومشتقات شبكات التواصل للتعري على ملأ المجتمعات معتلين حلبة افتراضية.

هذا شأنهم فلماذا تتدخل في حقهم في التباهي بشامة حريتهم؟ الشامة خلية سرطانية حميدة وربما خبيثة فكيف يدافعون عنها رمزا للجمال؟ هذا شأنهم!

تعود إلى سيرة الرسام إذن الذي تعتبر أنه استغل الفتى، وأجبره أن يلعب دور المتحفز لاكتشاف العالم خارج الإطار... ربما أراد الفتى أيضا الخروج وراقته اللعبة التي حسب نفسه فيها شريكا، متعاميا أنه مفعول به... أنه اللعبة التي اختار لها صاحبها الهيئة التي يشاء. لماذا تبتعد عن جوهر الموضوع بصفة مستمرة وتناقش مسائل لا

ما يعنيها هو المغادرة، غير أنها تخاف القفز، فقد تسقط ويدق عنقها أو تصيبها كسور متفرقة، لا حاجة إلى التهور ويمكنها الرحيل باختيار إحدى الوجهتين... الشمال أم اليمين؟ اليمين... لا...لا... اليسار!

الحظ وغباء المعجبين الذين دعموا لكنّ فتى اللوحة لم يكن يهاب قصة عدد 4: غميضة... إلى الأبد القفز، وليس متأهبا لينط، فنظراته ليست نحو الأسفل، وبدا مكتفيا بإطلالة لا غير، بيد أن هلعا سطع من عينيه وهو ينظر إلى الأمام، ليست نظرات انبهار أو إعجاب أو رغبة في الاكتشاف، لقد اعتراه فزع حقيقى تفجر من البؤبؤين كبركان سال لعابه الناري حمما.. ما الذي رآه يا ترى؟ فيديو قطع أعناق مباشر على اليوتيوب؟ اغتصاب جماعي لرضيع في الميتافيرس ولا أحد يبالي، فالمثقفون مشغولون في التعبير الثوري عبر إبداع الأغلفة الموازية

> يجب أن تضع حدا لفائض تفكيرها الناتج عن تعرضها لساعات طويلة للأخبار منتقلة من تفجير إلى قصف ومن زلزال إلى فيضان.. لكن، لا مكن تجاهل هلع الفتى، فما الذى يدفعها إلى المجازفة والتخلى عن مكانها الآمن في اللوحة ومواصلة المراقبة عن كثب، والاكتفاء بهذه المشاركة المعنوية؟ غير أنها ملت وتطمح إلى عرك الواقع...

للروايات؟

عرك الواقع؟ هل تريد أن تكون طرفا في معاركه أم تفجر معركتها الخاصة؟ لا تدرى...

ما زالت إلى هذه اللحظة عاجزة عن حسم القرار، خلا بالها من هموم الواقع، ولم يبق في ذهنها سوى سؤالين يستمران في مصارعة حرة: "هل أغادر؟ هل أبقى؟" ظلت عالقة في حفرة التردد، ولم تكتشف أنها ما عادت تستطيع الوقوف بشكل مستقيم في اللوحة وما عاد هناك مكان للرأس إلا إذا قبلت الانحناء.

*الرسام الإسباني بير بورال ديل كازو

حين كانت صغيرة، شاركت رفيقاتها لعبة الاختباء، ولم تجد مكانا أفضل من لوحة واجهتها سوداء، قفزت عبر الإطار إلى الداخل، وبقيت متكورة هناك، مهنئة نفسها على حسن التدبير، وهي تسمع ضجة الصديقات اللاتي ما أفلحن في العثور عليها ثم نادينها حين استسلمن، غير أنها قررت إذكاء حيرتهن، ولم تجبهن ولم تخرج.

يبدو أنها غفت، حين استفاقت، سمعت صوتي أمها وأبيها يهتفان باسمها، حاولت مغادرة مخبئها، لكنها، عجزت فصرخت: "أنا هنا! لا أستطيع الخروج! ساعداني!"، ظلت تصيح، ولم تثر انتباههما إلا بعسر، حين مرا حذو اللوحة وأيقنا أن الصوت داخلها. من للاستغراب! وقت لا حاولا مساعدتها للخروج، نجحا في البداية بالإمساك بيدها، وبدأ كتفها في الظهور ليتوقف النجاح عند هذا الحد، استمرا في الجذب دون جدوى للتسليم بأنها عالقة، ولا يمكن الاستنجاد بأحد، فسيتهمان بالجنون.

بعد تفكير، قررا الإبقاء عليها هناك لتتحمل مسؤولية عبثها، على أن تنقل اللوحة إلى قبو الأشياء المستعملة، وأمراها بالتزام الصمت، فلا حل لمعضلتها وإلا سيضطران للتخلص منها..مع الترويج أن الفتاة سافرت للسكن بصفة دامَّة مع خالتها.

بعد مرور سنوات، حن قلب الأب والأم، وأقرا أنهما أجحفا في العقاب، وأعمتهما الخشية من وضع عجيب وما أحسنا التصرف، فأعيدت اللوحة إلى غرفة الجلوس، ليجدا في القرب عزاء، فهي فتاتهما التي واصلت النمو بشكل طبيعي غير أنها لا تتحدث إلا نادرا؟ واعتادا صمتها الذي تبوأ في مرحلة لاحقة مرتبة الخرس.

لم يعتقدا أن اللوحة ستثير الاهتمام، ويتجاوز الحديث عنها دائرة القرابة

لينتقل إلى دوائر أهل الاختصاص في الفن التشكيلي والمهووسين بتجميع القطع الفنية الفريدة، تتالت العروض رغبة في اقتنائها، غير أنها جوبهت بالرفض رغم المبالغ المالية المغرية.

الرفض الذي كان قاطعا في البداية، بدأت شفرته في فقدان حدتها، وغدا الموضوع محل نقاش: "لم لا؟ فلنفترض أن الفتاة كبرت معنا بشكل طبيعي، هل سنمانع زواجها ممن تقدم لها، ونستنكر انتقالها للعيش في بيت آخر مع شخص يحميها؟ ما المانع إذا ضمنًا لها العناية؟ ماذا إذا أصابنا مكروه على حين غرة، وقضينا نحبنا قبل أن نعرف ملامح مستقبلها... أليس من الجيد الاستباق والاطمئنان أنها ستحيا عبشة آمنة؟ "

تتالت الحوارات الشبيهة بين الأب والأم، معتقدين أن كلامهما الهامس لا يبلغ مسامع الفتاة، وانتهى الأمر إلى قبولهما البيع لمن قدم السعر الأرفع، وهو ما سيمكنهما من العيش في بحبوحة وبعث مشروع طمح إليه الأب طويلا... والشعور بالرضى لأنهما ما فرطا فيها مقابل ثمن بخس.

اشترطا على الشاري أن يتسلم اللوحة، في الغد، فقد قررا الاحتفال ليلا وتوديع طفلتهما التي ستسافر بعيدا مع صاحب اللوحة الجديد. أعلماها بالأمر، لم يتلقيا منها جوابا، ففسرا صمتها برا بهما وطاعة لهما.

أقبل الرجل، صباحا، طلبا منه الدخول لأخذها وسيبقيان في البهو في انتظاره لأن المشاعر التي ستولدها اللحظة قد تدفعهما إلى التراجع، فاللوحة عزيزة جدا عليهما.

توجه الرجل نحو غرفة الجلوس، بعد هنيهة، سمعا صيحة استغراب، فهرعا إليه، تفاجآ بدورهما، فاللوحة خلت من صاحبتها وعادة رقعة بصفحة سوداء.

قصة عدد 5: السجن قدرا

هل تكفيه كل اللعنات التي ما انفكت تتناسل في روحها، وتصبها وابلا عليه كلما ذكرته فتستشيط غضا؟

لقد قتلته وليست نادمة، فهو الذي دفعها إلى ارتكاب الجريمة، بعد أن أصر على رسمها وسجنها في لوحة، دون مبالاة برفضها القاطع لهذا المصير، فما كان منها إلا أن مدت أصابعها في غفلة منه إلى سكين قشر بها برتقالة، وطعنته في رقبته مرارا.

لم يحصل الأمر مثلما خططت، انتظرت أن يقع متخبطا في نزف وجعه، وتستغل الفرصة للهرب، غير أنه استجمع قوة خارقة، وعدا نحو الهاتف واتصل بالإسعاف مرددا: "النجدة... مطعون... نزيف..." وذكر العنوان بوضوح، قبل أن يترنح كخرقة تلعب بها ريح شقية، وشخصت عيناه نحوها، وما استطاعت فك رموز رسالة نظراته.

ارتبكت وأهدرت وقتا ثهينا، وهي تراقبه يتخبط يغالب المنية التى أرضخته بضربة الحتف القاضية، حين تيقنت من موته، ضاعت فرصتها، فقد خلع الباب وهرع رجال الإسعاف والشرطة، فأسرعت عائدة إلى اللوحة، وارت يدها التي تحمل السكين المضرجة شفرتها بالدم ثم مالت كي تخفى وجهها خشية أن تشي ملامحه بفعلتها. تناقل الناس خبر اللوحة الأخيرة للرسام المغدور الذي حفظت قضية قتله ضد مجهول... مجهول؟ ألم یکن هو نفسه مغمورا قبل موته، يسبح في محيط التجاهل ويكاد يفترسه تمساح اليأس، إذ لم يعترف ببراعته، ولم يرض أي صاحب قاعة بعرض لوحاته التي عجز عن بيع واحدة منها حتى تلك التي أهداها لصديقته في ذكري ميلادها، واجهتها بنظرة امتعاض، ولوت شفتيها

وتعمدت نسيانها على كرسي في مطعم ليحملها النادل، ويلقيها في مصب النفايات؟

قد تتساءلون كيف أعرف تفاصيل حياته، وأجيب سؤالكم باستفهام:"كيف أجهلها وأنا فكرة سكنت روحه، وأبقاها سنين حرة تنتقل مثلما تشاء بين ثنايا ذهنه... إلى أن قرر رسمها؟

آه! هل تكفيه كل اللعنات... ذاك البائس الذي اختار لها هذا المصير المشؤوم، وحظي باعتراف القدر الذي ما حفل به أو احتفى لو بقي يرزح في قيود دنياه؟

لا تدري لماذا تشعر بحضور طيفه الشامت فيها، فهي أرادت قتله فأحيته، ولم تبق في السجن الذي اختاره لها فحسب، ورغم أن لا أحد كشف جنايتها، فقد أودعت سجنا أكبر، لا تعرف كيف تتحرر منه، وتغادر لوحتها المعلقة على حائط في متحف عالمي في مكان مطوق بحاجز بلوري لحمايتها. تنظر أحيانا إلى السكين في يدها وتهم أن... غير أنها تحجم وتستمر في لعن الفنان /السجان.



جمعية تونس الفتاة

الهاتف: 29797625

البريد الالكتروني: contact@tounesaf.org

الموقع: www.tounesaf.org

فایسبوك: facebook.com/tounesalfatet

تویتر: twitter.com/tounesalfatet

انستغرام: @tounesaf